اجتهادات
بكائيات التنوير

اتهام التيارات الاشتراكية الراديكالية فى القرن التاسع عشر بالمسئولية عن إخفاق التنوير خطأ جديد يرتكبه العاجزون عن إدراك التغيير الذى شهده العالم منذ سبعينيات القرن العشرين.

كثيرةً أصبحت ما يمكن أن نسميها بكائيات التنوير، ومختلفة هى المجادلات التى يطرحها الباكون حزنا على تراجع مبادئ الحرية والمساواة والعدالة والكرامة الإنسانية، وغيرها من قيم التنوير. لكن المجادلة الجديدة التى تُحَّمل كارل ماركس وأنصاره فى القرن التاسع عشر المسئولية عن هذا التراجع هى الأكثر عجائبية بينها. والمفترض أن أصحاب هذه المجادلة، وفى مقدمتهم د. جوناثان يسرائيل أستاذ التاريخ البريطاني، يعرفون أن التراجع الأول لقيم التنوير حدث نتيجة الاضطراب الذى شاب الثورة الفرنسية، مع صعود اليعاقبة وعنف روبيسبير ورفاقه، الأمر الذى أفسح الطريق أمام نابليون بونابرت وطموحاته الإمبراطورية، وأنهى الجمهورية الأولي. وكان ذلك قبل أن يقدم ماركس أفكاره، سعيا إلى تغيير العالم فى الاتجاه نفسه الذى قام عليه التنوير، ولكن مع إعطاء وزن أكبر لقيمة العدالة الاجتماعية. وبرغم أن بعض أنصار ماركس الفرنسيين تطرفوا، وسعوا إلى إقامة نظام اشتراكى يفتقر إلى أى أساس خلال الاضطرابات التى صاحبت غزو بروسيا 1870 - 1871 (كومونة باريس)، فقد كان فشلهم بداية انتقال فرنسا إلى الجمهورية الثالثة التى ازدهرت فيها قيم التنوير، وانتشرت فى أوروبا.

يعتقد من يُحمَّلون ماركس المسئولية عن إخفاق التنوير أنه دعا إلى حروب طبقية أضعفت أفكار التنوير. وهذا اعتقاد تجدر مراجعته، لأن ماركس قدم نظرية فى الصراع الطبقي، ولم يُحبذ إدارة هذا الصراع عن طريق العنف برغم أنه لم يمتلك شجاعة كافية لنقد من أقاموا كومونة باريس، علما بأن الكثير منهم لم يكونوا من أنصاره. وإذا كان ضروريا تحميل اشتراكيين أو شيوعيين مسئولية ما عن أزمة التنوير الراهنة فى العالم، فليتحملها مؤسسو الاتحاد السوفيتى السابق وحلفاؤهم الذين نسبوا أنفسهم إلى ماركس, وكانوا أكثر من أساء إلى أفكاره. وأيا يكون الأمر، وبغض النظر عن المسئول، يدفع العالم اليوم ثمنا فادحا لتراجع قيم التنوير. فهل تفرض تداعيات كورونا إعادة الاعتبار إلى هذه القيم، ومراجعة ممارسات مرتبطة بتراجعها؟